بين القديم والجديد

للأستاذ محمد فريد وجدى

منذ أن أعلن العلم الحرب على الدين فى القرن السادس عشر ، لم يَنِ عن مناوأته حيث ثقفه ، اعتقاداً منه أن الدين لا يقوم على أصل ثابت له علاقة بإيصال الإنسان إلى كماله ولكنه قائم على الأهواء التى يبعثها حب الذات فى النفوس ، وعلى الأوهام التى لا يمكن أن يقام على وجودها دليل ، والتى يكفى فى دفع سحرها عن العقول نشر العلم الصحيح بين الناس ، والعلم قد بنى على أساس دستوره المعروف ، وهو أن لا يقام لمعقول وزن إلا إذا أيده دليل من الحس ، وأنّى للعقائد الدينية أن تجد دليلا محسوساً لتقيم عليه وجودها ؟

وقد وفق رجال العلم إلى جانب هذا لكشف الكثير من مستتير الوجود ، ودرسوا نواميسها ، وأقاموا عليها مخترعات ووسائل ذات أثر بالغ فى كل فرع من فروع المحاولات الإنسانية؛ فكما ترى أثر العلم فى المدن بادية فى مصنوعاتها ومنتجاتها المحيرة للعقل، وفى علاجاتها وذرائعها المخففة للآلام ، المزيلة للأمراض ، ترى فى القرى فى آلات الحرث والرى والبذر والتسميد والحصاد والنقل الخ الخ ، فهذه المظاهر كلها أثرت فى العقلية الإنسانية ، وخاصة عقلية المتعلمين تأثيراً عظيما جعل للعلم فيها منزلة القوامة عليها ؛ فإذا بدا لهم مجهول ، أو أعوزهم ترجيح ، رجعوا فيه إلى العلم ، ووقفوا منه عند حكمه ، وقد علمت رأى العلم فى الدين ، فماذا تنتظر أن يكون عليه الناشئون بين حضنيه ، المعولون فى بناء أحكامهم عليه ؟

هذا الأزمة لحظناه فى أنفسنا ونحن فى دور الدراسة ، وكابدنا للتوفيق بين عقيدتنا والعلم مشاقّ مضنية ، وعملنا لنشر ثمرات ماحصلناه كتباً ، ولا نزال جادين فى هذا الطريق ثقة منا بأن مستقبل الإسلام بموافقته للعلم، وأن الذين لا يتطلبون هذه الموافقة ولا يتكلفون لإيجادها مثل ماتكلفناه ، تساورهم الشبهات والشكوك من كل مكان ، وينتهى بهم الأمر إلى الإلحاد .

إن أشد مايصادفه طالب الإيمان من طريق العلم هى ما فى الأديان من شئون ما فوق الطبيعة ، فالعلم الرسمى لا يزال قائماً على ما كان عليه من نفيها نفياً باتاً ، وحسبان كل مايتعلق بها من بقايا الخرافات الساذجة ، فالتوفيق بين العلم والإيمان من المحالات البعيدة الوقوع ، لذلك يشيع الإلحاد فى طلبة العلوم الكونية وفى أساتذتهم ؛ ومن كان منهم يعطف على الإيمان بها ، يكون مقوداً إليه بعاطفة لا بدليل ، ولا يعتبر هذا إيماناً فى نظرنا .

فهل من مخرج من هذا المأزق ؟

نعم ، وقد وجد منذ مائة سنة وهو ما كشفه العلماء العاملون من خصائص الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم ما فوق الطبيعة بعد دراسات عميقة وجهود مضنية صرفوها فى تتبعها فى جميع حالاتها ودونت فى مئات من المؤلفات القيمة .

إن هذه الدراسات العلمية المحضة التى عاداها ولا يزال يعاديها ممثلو الأديان فى جميع الملل ، قد محصت تمحيصاً لم تنله العلوم الطبيعية ذاتها ، وذلك لغرابتها وشدة ما كانوا يكذبون بها . فقد أثبتت هذه الدراسات والتجارب العملية وجود عالم فوق الطبيعة متحكم فى عالمنا الأرضى ، ومصرف له على مقتضى النظام الخاص به . عالم تعلل بعوامله جميع ما عجز الفلاسفة والعلماء عن تعليله فى العالم الأرضى ، وتخيلوا له عللا وهمية أو سكتوا عنه حيرة وعجزا .

كانت الحاجة ماسة جداً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى هذا الفتح العظيم فى العلم ، فقد كانت المعلومات التى لم تقبل التعليل قد بلغت حداً مؤيسا ، واكتشف النقدة العلميون جهات ضعف فى العلم نفسه لا يمكن الإغضاء عنها .

وقد بين هذا الأمر الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) بأوفى بيان فى كتابه القيم (تحول المادة) الذى ظهر فى سنة ١٩١٠ فقال :

« اذا اتفق أن فيلسوفا من المنصرفين إلى دراسة الموضوعات ذات الحدود المبهمة ، قرأ منذ عـدة سنين كتابا فى العلم الطبيعى كان يدهش من وضوح التحديدات فيه ، وصحة البراهين ، وضبط التجارب ، فكان لا يسعه الا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة .

« دامت هذه العقيدة فى القرون الكبرى حافظة لقوتها فى العلم العصرى إلى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على التفكير العلمى أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الأبيد . فان الصرح العلمى الذى كان لا يرى صدوعه الا عدد محصور من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت التناقضات والمحالات التى فيـه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث يـكاد لا تبلغها الظنون . .

« وقد صدرت مؤلفات على مثـال الكتاب الثمين المسمى (العلم والافتراض) لهنرى بوانكاريه ، تؤتينا بالبرهان على ما نقول فى كل صفحة من صفحاتها ، فلقد أرانا هـذا الرياضى المشهور أننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى فى مجال العلوم الرياضية .

« وقد كتب الأستاذ (لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول: انه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاما ، ويجمع عليها المجربون إجماعاً عاماً ، ولكن يسود اليوم العلوم الطبيعية ضرب من الفوضى . . ولم يظهر أن ناموساً من النواميس الطبيعية يعتبر ضرورياً ضرورة مطلقة . والآراء التى كانت تظهر لمن سبقنا أنها تأسست تأسساً ثابتاً صارت اليوم لدينا موضوعات تحت المناقشة .

وختم الأستاذ (جوستاف لوبون) الآراء التى أوردها لكبار العلماء بقوله :

« من حسن الحظ لا شىء أكثر ملاءمة للرقى العلمى من هذه الفوضى ، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبه عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمى . . . الخ »

نقول وفى أثناء هـذه اليقظة من الغرور العلمى ظهر علم ما فوق الطبيعة ، ودرست ظواهره ، ومحصت تمحيصاً دقيقاً ، وتولاها رجال من ذوى الكفايات الممتازة أوصلوها إلى غايات بعيدة ، وأقعدوها على أصول وطيدة ، بحيث صارت أهلا لأن تخصص لها دراسات فى بعض الجامعات الكبرى كجامعات أكسفورد وكمبريدج ويورك ، وجامعات أمريكية أخرى .

هذه البحوث الروحية التى أمضت قرناً كاملا تحت فحص أعتى العقول البشرية ، وأشدهم شكيمة فى العقيدة المادية ، قد أثبتت وجود عالم روحانى ، وشاهدت حوادث من قبيل تحكم الروح فى المـادة تحليلا وتركيباً ، وخرقاً للنواميس الطبيعية خرقاً لا هوادة فيه ، فانفسحت أمام أنظارهم منادح النظر العالى ، وأدركوا بالحس فساد النظرية الآلية التى كانوا يعللون بها وجود الكون المادى ونظامه واتساقه ، والحياة نفسها وما إليها ، وأصبحت النواميس الطبيعية فى نظرهم ليست بالقوى الأزلية الأبدية التى صاحبت الكائنات فى وجودها ، ولكنها مظاهر لقوى مدبرة أرفع منها .

هذه المكتشفات الحديثة تفتح أمام العقل الإنسانى حقائق كانت فلسفة العلم المادى قد جعلتها من المحالات العقلية ، مثل وجود قدرة عالية تدبر الكون والكونيات ، ووجود روح فى جسم الإنسان مستقلة عنه تخلد بعد انحلاله ، ومثل بعثة أرواح عالية للأمم فى فترات من الدهر سموهم الناس بالرسل ليهدوهم إلى الخير ، ويزعوهم عن الشرور ، ويمهدون لهم سبيل الارتقاء .

هذه البحوث لم تجتز عتبات الجامعات وتأخذ مكانها فى مصاف العلوم ، إلا لأنها قد جاوزت دور الفحص العلمى ، وأصبحت حقائق لا يمكن التمارى فيها .

فالسد الوحيد الذى أراه يقاوم تيار الإلحاد المندفع الذى يكتسح أمامه الأمم والشعوب ، ويلقى بها إلى مكان سحيق من الفوضى والفساد الخلقى والتناحر ، هو أن يتضلع علماء الدين من هذا العلم الجديد ، ويستخدموه لحل شبهات المشتبهين ، وكبح جماح المستهترين . وما المانع لهم من ذلك وهو يزيد فى دعوتهم تأثيراً ، ويلقى على حججهم نوراً ، ويقدع من معاطس المتفلسفة الذين يتخيلون أنهم وحدهم الذين خلصوا من أوهام العقائد ، وكل من عداهم يرسف فى أغلالها ويتعثر فى أذيالها ، ويحمل عقله تصديق خيالات لا وجود لها .

هذا الموقف وحده يحفز المدافعين عن العقائد أن يحذقوه لكم أفواه المتحذلقين من الماديين . فما ظنك والضرورة أصبحت تقتضيه ثم تقتضيه لأن انتشار التعلم فى الأمة الإسلامية تتسرب